من بيرزيت إلى بيروت

الطلاب الفلسطينيُّون الذين تظاهروا في بيرزيت ضد زيارة رئيس الوزراء الفرنسيّ، ورشقوه بالحجارة، بعد أن أصرّ على نعت المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة بـ «الإرهاب»، يستحقون أن يكونوا «رجالَ هذا العام». فوقاحة جوسپان في عقر دار الانتفاضة، واستخفافُه بوحدة الشعور اللبنانيّ ـ الفلسطينيّ عقب الاعتداء الإسرائيليّ على منشآت لبنان الكهربائيّة والمدنيّة، ما كان ليكافئهما إلاّ حَجَرٌ يَنْزل على أمِّ رأسه.

ترى، أيليق بنا أن نتحدّث بهذا المنطق غير «الثقافيّ»... وفي افتتاحيّةِ عددٍ يتناول على امتداد سبعين صفحةً موضوعةَ «حوار الحضارات» بالتحديد؟!

ولكن مَنْ قالَ ـ في المقابل ـ إنّ الثقافة نقيضُ الحجر؟ ومَنْ قال إنّ حوار الحضارات يمكن أن يتخطّى كرامةَ الشعوب وحريّتَهم وحقَّهم المشروعَ في مقاومة المحتلّ؟

«من بيرزيت لبيروت، شعبٌ واحد لا يموت». هكذا هَتَفَ طلابُ جامعة بيرزيت إعلاناً لتضامنهم مع إخوانهم اللبنانيّين... الذين كانوا ـ بدورهم ـ يتظاهرون ضد العدوان الإسرائيليّ، وضد سفير الولايات المتحدة الأميركية الذي برّر هذا العدوانَ، وضد تصريحات جوسپان. وفي عواصم أخرى كان الطلابُ العربُ ينزلون إلى الشوارع حاملين قبضاتهم المرفوعة وحناجرَهم المبحوحة، ليقولوا إنّ زمن الطلاّب آتٍ، وإنّهم لن يسمحوا للعدوّ أن يستفرد زملاءهم في أماكن أخرى من هذا الجسد العربيّ الواحد برغم هلهلته.

وأما الوعي العربيُّ عامّةً فما زال «مصدوماً»: مصدوماً من تهديد وزير خارجية العدوّ دايڤيد ليڤي بإحراق تراب لبنان وقَتْلِ أطفاله، وكأنّ سياسة الصهيونيّة مخالفةٌ في الكلام وفي التطبيق لما هَدَّد به... ومصدوماً من «وقاحة» سفير الولايات المتحدة في لبنان المستر دايڤيد ساترفيلد، وكأنّ السِّلاحَ الذي دُمِّرتْ به منشآتُ لبنان وقراه وناسُه ليس سلاحاً أميركياً. وبين دايڤيد تل أبيب، ودايڤيد بيروت، «صُدِم» الوعيُ العربيُّ أيضاً بحملة الاعتقالات التي شنَّتْها سلطةُ الحكم الذاتيّ الفلسطينيّ على الطلاب المنتفضين، وكأنّ هذه السلطة لم تكن هي التي تحاول أن تَئِدَ الحلمَ الفلسطينيُّ ووقّعتْ وثيقةَ إنهاء «فكرة فلسطين». و«صُدِمَ» أخيراً، بموقف فرنسا، وكأنّها لم تحتلّ أراضي عربيّة، ولم تقتلْ، ولم تشرّد عرباً؛ بَلْ كأنّ «دمَ الثوّار لا تعرفه فرنسا»!

تُرى متى يبقى وعيُنا مصدوماً؟ فمنذ هزيمة ١٩٦٧ ونحن نتلقّى الصدمات: نفاجأ بأنّ العدوّ جاء من غير الجهة التي انتظرناه عندها، ونفاجا بأنّ جيوشَنا هُزمتْ خلال ستة أيام، وكأنّ الهزيمة جاءت من خارج واقعنا المحاصَرِ بالمخابرات والكبت والرشوة والفساد والفهلوة والأبويّات والطائفيّات والمذهبيّات والشلليّات والفئويّات وكلّ الـ «إيّات» التي قد يتفتّق عنها معجمُنا. ثم نفاجا بالسادات يكْسر «الحاجز النفسيّ» مع العدوّ، وكأنّه لم يكن قادماً من خيمة كيلو ١٠١. ونفاجا بالرؤساء و«القادة» العرب يصافحون قادةَ العدوّ، وكأنّ هذه المصافحة لم تَسْبقْها عشراتُ المصافحات واللقاءات والقبلات على امتداد السنوات التي سبقتْها. ونفاجا بهزيمة الجيش العراقيّ، وكأنّنا كنّا نصدِّق كل الدعايات التي أطلقها النظامُ عن قوّته التي لا تَقْهرها ترساناتُ واشنطن وتل أبيب وثمانٍ وعشرين دولةً أخرى.

ولأنّنا «تعوّدنا» أن نُصدَم، وأن نُخذَل، وأن نُحبَط، أفلا يُمْكن أن نكون قد خَلَقْنا من ثورة الطلاّب الجديدة ـ التي اكتسحتْ شوارعَ بيروت والضفة وغزة والقاهرة والإسكندريّة ودمشق .. ـ وهماً جديداً قد يُصيبنا في المستقبل (لا سمح الله) بصدمةٍ جديدة؟

ومناسبةُ هذا التخوُّف ليست اعتباطيّة، ولا حبّاً بجَلْد الذات، ولا إغراقاً في التشاؤم. بل تنبعث من مشاهدات الصحفيَّين، ومشاهداتِنا نحن، للعيوب التي تَنْخر صفوفَ الحركة الطلابيّة: من ذيلية هذه الحركة للأحزاب، إلى طرح شعاراتٍ عنصريّةٍ وشوڤينيّةٍ وجاهليةٍ ضد الغرب (عامةً) واليهود (عامةً) والأميركيّين والفرنسيّين (عامةً) تشكّل ردّةَ فعلٍ عصابيّةً مازومةً ضد واقع الهيمنة والاستعلاء الإمبرياليّ. (أرأيتم؟ ها نحن مجدداً في قلب الجدل الذي يتناول محورَنا: «الحضارات والثقافات ـ بين الحوار والصراع»!). وإذا بتظاهرات الطلاّب التي يتوسّم فيها العربُ الخلاصَ من مآزق السياسات الرسمية والحزبية تتحوّل أحياناً صورةً مصغّرةً عن هذه المآزق!

وهنا، هنا بالتحديد، واجبُ الطلاّب الواعين، وواجبُ المثقفين الذين كانوا طلاباً فيما مضى ورأوا كيف جُيِّرتْ مشروعاتُ الطلاّب السابقة في خدمة الطوائف والشلل والزعامات التقليديّة لاحقاً. وهنا، هنا بالتحديد، تقع على عاتق طلاّبنا الواعين وصحفيينا ومثقفينا مسؤوليةٌ عظمى في أن يُعْمِلوا سلاحَ النقدِ والخبرة، فيتصدّوا لكلّ النزعات الفئوية والعِرقيّة والشوڤينيّةِ والاستعلائيّة (وإنْ بسببٍ من عقدةٍ دونية!)، ويوجّهوا دفّةَ ثورتنا الجديدة بعيداً عن أيّة «صدمات» محتملةٍ في المستقبل.

إنّ طريق الانقلاب على الهزيمة، وعلى الصدمات المتكرّرة، يبدأ من عدّة مداخل. وثورةُ الطلاّب الواعيةُ، والصادقةُ، والديموقراطيةُ، والموحّدةُ على تنوُّعها، هي واحدٌ من أهمّ هذه المداخل، ولا بدّ أن تشكّل في الآتي القريب، لِوَعْينا، صدمةً... إيجابيّةً هذه المرّة!

الآداب